الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية

الدكتور أحمد أبو مطر

منذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ بدأ اليهود ـ بشكل علني ـ يشكلون طرفاً أساسياً من أطراف الصراع على أرض فلسطين ، إلى جانب العرب والانجليز ، إذ كان الوعد إشارة علنية للحركة الصهيونية ، كي تنسق خطاها مع الحكومة البريطانية ، صاحبة الوعد، تحقيقاً للوطن القومي اليهودي في فلسطين. وقد أحس المواطنون العرب بخطورة هذا الوعد ، بعد أن بدأت الحركة الصهيونية تعمل علناً من أجل خدمة غرضها الأساسي ، بمساعدة بريطانيا الخفية والعلنية . ومع تصاعد الصراع بين طرفيه الأساسيين : العرب من ناحية والانجليز واليهود من ناحية أخرى ، اتضحت جلياً أطماع اليهود في سلب الوطن الفلسطيني . من جرّاء الصراع السياسي ، ومن خلال العلاقة التي مارسها العرب واليهود في فلسطين قبل النكبة وبعدها ، كان لا بد أن تجد (الشخصية اليهودية) طريقها في الرواية الفلسطينية ، وعند كتاب كثيرين ، يعرضون أنماطاً من هذه الشخصية كما عرفتها ساحة الصراع (فلسطين) . وهنا نود أن نسجل أن تصوير الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية ، كان منسجماً مع الدراسات التاريخية حول هذه الشخصية ، ومع بعض صورها في الآداب الأوروبية ، وأيضاً كما عرفها الواقع الفلسطيني ، فلقد أتيحت للمواطن العربي الفلسطيني فرصة طويلة زمنياً لمعرفة هذه الشخصية عن قرب، وعلى أرض الواقع، دون الحاجة الى الدراسات التاريخية والنفسية حولها.

أ ـ النمط الشايلوكي :

من أقدم الشخصيات اليهودية ظهوراً في الرواية الفلسطينية تلك الشخصية التي تمثل النمط الشايلوكي منها . وذلك من خلال الممارسة والعلاقة التي قامت بين العرب واليهود قبل عام ١٩٤٨ ، فقد كان اليهود يقومون بدور خطير لخدمة الحركة الصهيونية ، في مجالات متعددة ، منها السيطرة على أوجه النشاط الاقتصادي في فلسطين وتسخيره لخدمة أهدافها ، من خلال مزاحمة الرساميل العربية ، وفرض الضرائب التي تفقر المزارع الفلسطيني ، بحيث تجعله ليل نهار تحت وطأة الضرائب ، في الوقت الذي كانت الصناعة والمستوطنات اليهودية ، تلقى العون

والدعم ، من الحركة الصهيونية وحكومة الانتداب البريطاني . لذلك نلاحظ أن من أسبق الشخصيات اليهودية ظهوراً في الرواية الفلسطينية ، تلك التي تمثل النمط الشايلوكي ، الذي يحترف أعمال الربا والسمسرة والغش في التجارة ، ونصب الأفخاخ لمعارفه من العرب ، كي يسخرهم لخدمة أغراضه . وكان أول ظهور هذه الشخصية في رواية (الوارث) لخليل بيدس - ١٩٣٠ - حيث نجد المرابي (ناثان) الذي ينسق جهوده مع الغانية اليهودية (أستير) بقصد ايقاع الشاب العربي (عزيز) في شباكه ، إذ ورث ثروة طائلة من عمه المتوفى . كانت (أستير) قد أوقعته في حبها ، في حين اتخذته هي مصدراً للانفاق عليها ، وسد حاجات من حولها من الشخصيات اليهودية ، كالمرابي (ناثان) وبائع الآلات الموسيقية وعمتها الكهلة (راحيل) . بعد أن أيقنت أستير أنها سيطرت عليه ، زادت من طلباتها وهداياها ، ولما كان عزيز لا يملك اللازم لذلك ، أوعزت اليه باقتراض المبالغ المطلوبة من الصيرفي المرابي اليهودي (ناثان) ، وعندما يموت عمه الطاعن في السن ، وتؤول إليه ثروته ، يقوم بسداد ديونه لأصحابها ، أما (ناثان) ، فقد أفهمه صعوبة الحصول على المبالغ نقداً ، وأن الوسيلة الوحيدة لذلك هي شراء آلات موسيقية بصكوك إلى أجل من تاجر يهودي سيدله عليه ، ثم يبيع قسماً من هذه الآلات بثمن بخس ، ويرهن الباقي عند التاجر الذي اشتراها منه . وسجله على نفسه في الصكوك وبيّن المال النقدي الذي حصل عليه بهذه الطرق المعقدة[١] ، في الوقت الذي يتظاهر فيه (ناثان) بصداقة عزيز البريئة . وتستمر أعمال (أستير) و(ناثان) على هذا النمط ، بحيكون الخطط والمكائد للحصول على الكثير من أموال عزيز .

ان هذا الجانب من رواية (الوارث) ليس بعيداً عما عرفه واقع العلاقة بين العرب واليهود في فلسطين قبل ١٩٤٨ ، ونفس النمط من الشخصية اليهودية ، يرد عابراً في رواية محمد العدناني (في السرير) - ١٩٤٦ - . فقد تعرف وهو في سفره من مدينة كيراكوف الى بوخارست على رجل حسن الهندام ، فارع القوام ، أمل أن يكون دليله في مدن يجهلها ، لذلك دفع عنه الأجرة ، وأكرمه في مطعم فخم ، ولما وصلا إلى كونستانزا ، الثغر الروماني ، حجز له في فندق غرفة بسريرين ، بحجة أنه لا يوجد غرفة بسرير واحد ، وودعه كي يذهب لينام عند شقيقه المقيم في كونستانزا . وفي الصباح عندما استيقظ (طريف) بطل الرواية ، وجده قد نام معه على السرير الثاني . وبعد أن احتال عليه بمزيد من النقود والمصاريف ، اكتشف أنه يهودي مشهور بالنصب والاحتيال .

ب - النمط غير المندمج :

نتج عن وجود العنصر اليهودي في مختلف أنحاء أوربا ظاهرة سياسية اجتماعية ، عرفت باسم (الاندماج) ، ويعني بها « اندماج » اليهودي في المجتمع الأوربي الذي يعيش فيه . إلا أن هناك العديد من الأسباب التي حالت دون اندماج اليهود في تلك المجتمعات ، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلتها حكومات تلك الدول ، وبعض الحركات الخاصة التي قادها فلاسفة ومفكرون . وكان أن انعزل اليهود في أحياء خاصة بهم (جيتو) رافضين الاندماج في ما عداهم من مجتمعات . وقد ساعد على ذلك الاضطهاد الذي لقيه اليهود في بعض المجتمعات الأوربية ، مما أثار عندهم الاحساس بالعرق اليهودي الخاص المميز ، و« هكذا ظهر في القرن التاسع عشر مفكرون يهود قطعوا صلتهم بالانسانية عامة وبشروا بأفكار صهيونية مفادها أن على اليهود أن ينفصلوا عن العالم ويكفوا عن أن يكونوا جزءاً من نهر البشرية العريض »[٢] . ولقد عمدت الحركة الصهيونية بعد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا عام ١٨٩٧ الى تغذية ظاهرة « عدم الاندماج ، كي يتسير لها اعداد ألوف المهاجرين الى فلسطين ، التي عملت الحركة الصهيونية منذ ذلك التاريخ على عمل كل ما يلزم لإعدادها وطناً قومياً لليهود . وهكذا شكل اليهود في كافة أنحاء العالم مجتمعات خاصة بهم (جيتو) رافضين الاندماج ، معتقدين بعرق خاص مميز . وفي المجتمعات التي لم تعرف هذه الأحياء الخاصة (جيتو) ظل اليهودي ، على الرغم من عيشه في مجتمع الآخرين ، يحس بوجوده المميز ، رافضاً كافة أنواع الاندماج ، وفي كل المجالات . وقد زاد هذا الاحساس مع بدء تدفق موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين ، التي كانت تشرف عليها وتمولها الحركة الصهيونية .

وقد شكلت المستوطنات اليهودية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ نوعاً من (الجيتو) ، حيث أقامت الحركة الصهيونية هذه المستوطنات على أراض قاموا بشرائها ، أو منحت لهم من حكومة الانتداب البريطاني ، لاستيعاب المهاجرين اليهود القادمين من أوربا وغيرها . وقد أقاموا في هذه المستوطنات كافة مظاهر النشاط من زراعة وصناعة . وفي مرحلة تالية أصدروا ما سمي « قانون العمل العبري » الذي يحرم على العمال والمزارعين العرب العمل في المصانع والمزارع اليهودية .

والمثال الوحيد لليهودي غير المندمج في الرواية الفلسطينية ، هو شخصية (راؤول) في الجزء الثالث (القناع) من (ثلاثية فلسطين) لنبيل خوري .

كان (كمال) بطل (القناع) يسهر في أحد ملاهي باريس عندما ناداه صوت بإلحاح : كمال . . كمال . تبين صاحب الصوت فاذا هو (راؤول) الشاب اليهودي ، صديق الشلة في بيروت ، الذي انقطعت أخباره نهائياً عام ١٩٥٦ ، وها هو يظهر بشكل غير متوقع عام ١٩٧٠ . كانت الصدمة الفاجعة لـ (كمال) عند أخبره (راؤول) أنه ترك بيروت بعد العدوان الثلاثي على مصر ، مهاجراً إلى اسرائيل . ومن خلال ما جرى بينهما من حوار حول هذه المسألة تبرز المكونات النفسية لشخصية اليهودي غير المندمج ، على الرغم من كافة أسباب الراحة والطمأنينة التي كانت متوافرة له .

« ـ ولكن لماذا تركت لبنان ، ولماذا ذهبت إلى اسرائيل ، لم اخترت اسرائيل من بين دول العالم . . . ؟

ـ تركت لبنان لأنني يهودي ، واخترت اسرائيل لأنها وطن اليهود »[٣] . هذا على الرغم من أنه من مواليد لبنان ، ويحمل الجنسية اللبنانية ، وما يزال والداه يقطنان لبنان .

لماذا هاجر (راؤول) ؟ هل اضطهد في لبنان كي يفكر في الهجرة إلى اسرائيل ؟ لم يحدث هذا ، ففي لبنان آلاف اليهود ، إلا أنها العقدة النفسية التي تحكم علاقة اليهود بما حولهم من مجتمعات ، وبقايا السلوكيات التي كانت الحركة الصهيونية تغذيها دوماً ، كي يظل اليهودي يعيش باحساسه أن مجتمعه الحقيقي هناك على أرض فلسطين ، ضماناً لاستمرار سيل الهجرة متدفقاً الى ما يسمونه أرض الميعاد .

« ـ ولكن لبنان كان وطنك ، وما زال حتى الآن وطن آلاف اليهود .

ـ بعد حرب السويس شعرت فجأة بأنني غريب عن لبنان ، مرفوض ، لقد رفضني مجتمعكم . . أصبحت وحيداً . .

ـ هل كنت تشعر بهذه الغربة وهذا الرفض وأنت بيننا في بار الأكسلسيور ؟

ـ هل عاملناك كغريب عنا . . هل . . هل . . عاملناك أبداً كيهودي »[٤] .

ويستمر الحوار بين (كمال) الفلسطيني ، و(راؤول) اليهودي غير المندمج الذي هاجر الى اسرائيل ليكشف عدة أمور :

أ ـ لم يتعرض (راؤول) لأي اضطهاد في لبنان . بل بالعكس ، إذ كان الشخصية المحببة لكل رواد بار الاكسلسيور . ووالداه ما يزالان يعيشون في بيروت .

ب ـ أن هجرته إلى اسرائيل كانت نتيجة وقوعه تحت تأثير الدعاية الصهيونية القائلة بأن اسرائيل « وطن لليهود » من كل أنحاء العالم .

جـ ـ أن وجوده في « اسرائيل » غير كثيراً من آرائه ، وجعله مقتنعاً بمفاهيم لا يختلف اثنان على خطئها في حين يراها هو عين المنطق والصواب .

جـ ـ النمط الانساني :

عرفت الرواية الأوربية ، في انجلترا بالذات ، أنماطاً متنوعة من شخصية اليهودي ، حسب المرحلة الزمنية وما يسودها من أفكار ومعتقدات عن اليهودي . ففي بداية القرن التاسع عشر كان اليهودي يصور في القصص الانجليزي أما على صورة شايلوك أو اليهودي التائه[٥] . ومع ظهور الثورة الصناعية والثورة الفرنسية اللتين غيرتا طبيعة العلاقات بين اليهود والأوربيين ، بدأت تظهر شخصية اليهودي الطيب ، الكريم الانسان ، النقيض ليهودي شكسبير الوغد ، ويمثل ظهور شخصية اليهودي الطيب انعطافاً تاماً في المنطلقات الاجتماعية والنفسية التي كانت وراء تقديم شايلوك[٦] . وهذا يعني تغير النظرة التي سادت زمناً طويلاً في الأدب الانجليزي ، وكانت ترى في اليهود مجموعة من اللصوص والمجرمين .

بالاضافة الى النمطين السابقين ـ الشايلوكي وغير المندمج ـ تعاملت الرواية الفلسطينية مع النمط الثالث من الشخصية اليهودية ، وهو اليهودي الطيب ـ الانسان الذي لم يقع تحت تأثير أفكار الحركة الصهيونية المضللة ، وظل محتفظاً بشخصيته ومفاهيمه المستقلة ، التي ينطلق فيها من قناعاته الخاصة كانسان . ونلاحظ أن هذه الشخصية اليهودية قد شغلت في الرواية الفلسطينية حيزاً كبيراً بعكس النمطين السابقين .

ولهذا دلالة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنظرة الكاتب الفلسطيني للشخصية اليهودية ، وتدل على علمانيته القائلة بامكانية التعايش بين العرب واليهود في دولة ديمقراطية بعيداً عن منطلقات الحركة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية .

كان ناصر الدين النشاشيبي أول من قدم اليهودي الانسان ، في روايته « حبات البرتقال ـ ١٩٦٣ . وقد عرض فيها لمختلف الأجواء التي تتعرض لها شخصية اليهودي سواء في أوربا أم في اسرائيل أم على يد الحركة الصهيونية التي تتولى عمليات تجميع اليهود وتهجيرهم الى فلسطين المحتلة .

« سابا » بطل الرواية ، فلسطيني كان يدرس في ألمانيا في الأربعينيات. سجنه النازيون مع اليهود والفرنسيين والانلجيز في سجن (داخو) بألمانيا. في السجن تعرف على فتاة يهودية اسمها (مريم) وبعد هزيمة النازية في الحرب العالمية الثانية ، خرج من السجن ليواصل حياته في ألمانيا مع صديقته اليهودية الألمانية ، وقد استطاع أن يغرس في نفسها مفاهيم انسانية ، منها أنه كفلسطيني لا يكره اليهود انما يكره الصهاينة الذين يحاولون الاستيلاء على وطنه . وقد اقتنعت مريم بهذا المنطق عندما تذكرت أن النازية لم تفرق في معسكر الاعتقال بينها كيهودية وبينه كفلسطيني وبين الفرنسي والانجليزي . لقد تمكنت هذه المفاهيم الانسانية في نفس مريم إلى حد رفضها التعاون مع رجال الوكالة اليهودية في ألمانيا . . « لا . . لن أتعاون معكم ، أنتم مجرمون . . أنتم تريدون استخدامنا لتنفيذ وسائلكم الصهيونية الكريهة . . إن فلسطين ليست بلدي . . ان بلدي هنا . . وسأبقى هنا . . ولن أساعدكم على استغلال عذابنا من أجل أهدافكم[٧] .

إزاء موقفها هذا، يعمل رجال الوكالة اليهودية مع موظفي الادارة الأمريكية ، على ترحيله الى وطنه فلسطين ، بحجة معاداته لليهود . وفي غيابه تقع مريم تحت طائلة الضغوط الصهيونية ، فتوافق على السفر الى فلسطين . هم يريدونها مهاجرة تعمل في خدمة الحركة الصهيونية ، وهي تريد اللحاق بصديقها الفلسطيني سابا .

في فلسطين قصت له عن الأيام التي قضتها في معسكرات المهجرين اليهود في قبرص ، وعن التضليل الذي تمارسه معهم الحركة الصهيونية ، وعن الوعود الزائفة التي اكتشفت خطأها بعد وصولها إلى فلسطين ، وتؤكد مريم على رفضها لكافة مبادىء الحركة الصهيونية التي أفسدت على اليهود أمنهم واستقرارهم في كافة الدول التي يقطنون فيها ، وتبدأ مشاركة سابا ورفاقه في نضالهم ضد الحركة الصهيونية ومخططاتها الاستعمارية والاستيطانية.

في روايته « عائد الى حيفا » ـ ١٩٦٩ ـ ، يعطي غسان كنفاني المسألة شمولاً أكثر ، عن طريق الربط بين عذاب الانسان الفلسطيني على يد الصهاينة وعذاب اليهود على يد النازيين . فاليهودي أيفرات كوشن وزوجته ميريام ، قدما إلى فلسطين المحتلة من وارسو عن طريق ميناء ميلانو وقد كانت فلسطين آنذاك له « مجرد مسرح ملائم لاسطورة قديمة ، ما يزال يحتفظ بنفس الديكور الذي كان يراه مرسوماً ، في الكتب الدينية المسيحية الملونة المخصصة لقراءات الأطفال في أوربا »[٨] .

وقد شهد مع زوجته وهما في « نزل المهاجرين » التواطؤ البريطاني مع العصابات الصهيونية لتسليم مدينة حيفا . . وبعد انتهاء المعارك يومي الأربعاء والخميس لم يخرج من المنزل إلا يوم السبت ، أدهشه أنه (سبت حقيقي) إذ لم يشاهد سيارة في الشارع ، إلا أن زوجته بكت بصمت وهي تقول له : « اني أبكي لشيء آخر ، انه سبت حقيقي ، ولكن لم يعد ثمة جمعة حقيقية ، ولا أحد حقيقي »[٩] . وتبدو انسانية ميريام عندما شاهدت شابين من الهاجناه يحملان شيئاً ويضعانه في شاحنة صغيرة ، واستطاعت في لحظة كانخطاف البصر أن ترى ما يحملانه . . قالت لزوجها (كان ذلك طفلاً عربياً ميتاً ، وقد رأيته مكسواً بالدم)[١٠] . وعندما يسألها : (كيف عرفت أنه عربي ؟)[١١] . تجيبه : (ألم تر كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة ؟ لو كان يهودياً لما فعلوا ذلك)[١٢] .

ان انسانية ميريام هذه نابعة من تأكدها أن هذه الوحشية التي يعامل بها العرب في فلسطين على يد العصابات الصهيونية ، لا تختلف عن الوحشية التي عومل بها اليهود على يد النازيين . فلا يختلف قتل الطفل العربي في حيفا برصاص الهاجناه عن مقتل شقيقها الطفل في أوشيفتز بألمانيا على يد الجنود .

لذلك تقرر العودة إلى ايطاليا لأنها اكتشفت أباطيل الصهيونية وادعاءاتها ، لولا رفض زوجها . ان هذا الاحساس الانساني عند ميريام نابع من رؤيتها الشاملة للعذاب الإنساني أياً كان جنس الانسان المعذب . وفي الوقت ذاته تبدو علمانية غسان كنفاني اذ « يربط بواسطة تقديم هذه الشخصية وتاريخها لأول مرة في الأدب العربي ، ما بين عذاب المضطهدين في كل مكان ، عذاب الانسان الفلسطيني على يد الصهاينة وعذاب الانسان اليهودي على يد النازية»[١٣].

ومن خلال تقديمنا للشخصية اليهودية ، نرى أن الريادة في النظر إليها من منطلق انساني يرجع إلى ناصر الدين النشاشيبي في روايته « حبات البرتقال » بعكس ما تراه الدكتورة رضوى عاشور ، في اعتباها غسان كنفاني أول من قدم الانسان اليهودي شخصية روائية ، وقد سبق ناصر الدين النشاشيبي غسان كنفاني في ذلك بعدة سنوات.

وقد قدم نفس الشخصية أفنان القاسم في روايته (الباشا) ـ ١٩٧٣ ـ حيث نشاهد العجوز اليهودي الطيبة « أم سارة » تعيش نفس حياة الفلاحين الفلسطينيين وتشاركهم السراء والضراء ، دون أن يلمح أحد منهم الى يهوديتها فقد أصبحت فرداً منهم ،

لها ما لهم ، وعليها ما عليهم .

بالاضافة إلى الأنماط المميزة السابقة من الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية ، ينبغي أن نلاحظ أن هناك انطباعاً عاماً عن هذه الشخصية ، في روايات عديدة ، كان يتلخص في صفات القتل والارهاب والعنف ، وهو نابع من العذاب والألم الذي شهده الفلسطيني على يد العصابات الصهيونية ابن نكبة فلسطين ، من خلال العديد من الجرائم والمجازر الوحشية التي ارتكبتها تلك العصابات .

الهوامش

(١) د. ناصر الدين الأسد ـ خليل بيدس رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ص ٧٦ .
(٢) هاني الراهب ـ الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية . مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١ .
(٣) نبيل الخوري ـ ثلاثية فلسطين ، دار الشروق، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٠٨ .
(٤) ثلاثية فلسطين ص ٢٠٨ .
(٥) هاني الراهي ، مرجع سبق ذكره ص ٩ .
(٦) المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٢ .
(٧) ناصر الدين النشاشيبي ـ حبات البرتقال، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٨٧ .
(٨) حبات البرتقال ص ٢٧٣ .
(٩) المصدر السابق ص ٣٧٧ .
(١٠) المصدر السابق ص ٣٨٧ .
(١١) المصدر السابق ص ٣٧٨ .
(١٢) المصدر السابق ص ٣٧٨ .
(١٣) د. رضوى عاشور ـ الطريق الى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

دار الآداب تقدم

شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري

الدكتور جودت فخر الدين

تطرح هذه الدراسة أسئلة رئيسة ثلاثة: حول بنية القصيدة العربية الكلاسيكية، وحول بنية القصيدة العربية الحديثة، لكن بشكل ضمني وغير مباشر، وحول النقد الشعري.

وتستقصي ـ في قراءتها للنقد العربي ـ معاني هذه الأسماء: اللفظ، النظم، عمود الشعر، وما تنطوي عليه من أنساق تتعلق بالألفاظ (نسق الحروف في الكلمات، نسق الكلمات في الجمل، نسق الجمل) وبالتراكيب والنظم، وبالمعنى والغرض. وتصل الى موقف يرى أن ما نسميه اليوم بـ«الشكل» كان يشمل عند النقاد العرب القدامى أبعاد القصيدة اللفظية والإيقاعية والمعنوية معاً.

تلك القراءة حديثة، يقوم بها شاعر/ ناقد حديث. لذلك إذ توضح أفق القديم، تفتح أفقاً للتساؤل حول الحديث: لا بدّ في الحالين، من فهم جديد يؤرخ للقصيدة العربية وللشعر العربي تأريخاً جديداً.

في إطار الأسئلة الثلاثة تلك، تبدو لي أهمية هذه الدراسة، وآمل لأبعادها النظرية ان تقرن، استكمالاً، بدراسة تطبيقية ترسم التحولات في بنية التعبير عند الشعراء القدامى، وذلك تمهيداً لرسم هذه التحولات عند شعراء الحداثة.

أدونيس